الملك الشهيد

عبد الله بن الحسين

للأستاذ أحمد رمزي بك

— ٢٠ —

ليزد بنو الحسن الشراف تواضعا ... هيهات تكتم في الظلام مشاعل
فلقد علوت فما تبالي ، بعدما ... عرفوا ، أيحمد أم يذم القائل
(المتنبي)

* * *

كان الجو السياسي قاتما ، يشبه الجو الذي يمر بنا الآن ، وكانت إيطاليا تستعد لغزو الحبشة ، ولا هم لساسة الغرب سوى حصر النزاع في دائرة ضيقة ، كما يفعلون الآن في كوريا ، وأخذت بريطانيا الأهبة لنفسها حتى لا تفاجأ ، فبعثت برجالها يجوبون الشرق الأوسط والبلاد العربية ، فكان اللورد جورج لويد المندوب السامي السابق بمصر في طليعتهم ، إذ جاء إلى فلسطين ونزل ضيفا على المندوب السامي لفلسطين ، في ذلك القصر الذي شيد على طراز صليبي ، والذي كان يذكرني دائما بأنني داخل حصن يسكنه عميد الأسبتار أو قائد الداوية ، وهما منظمتان للفرسان الصليبيين التقينا (١) بأفرادهما في كثير من المعارك التاريخية ، وعرفت سيوف السلف كيف تلين قناتهم ، وترسل الأسرى من أبطالهم هدايا إلى ملوك الهند وبقية آسيا . ما دخلت هذ القصر حتى غمرتني الذكريات وشعرت بشيء من العطف على اليهود ، فقلت إن هذا البناء يدعوني أن أقول لهؤلاء الخصوم يوما « لقد جمع الشقاء بيننا » .. ولكن الأيام لم تسمح لي أن أنطق بذلك ؛ لقد خلع هؤلاء الظالم والشقاء ، وبقينا نحن نجر ثياب الحزن والشقاء

وفي مساء يوم السبت ١١ يناير سنة ١٩٣٦ ، أقام المندوب السامي السير آرثر وكوهوب حفلة عشاء ساهرة بقصره احتفاء بمقدم اللورد لويد ، وكان على رأس المائدة المرحوم الملك عبد الله ابن الحسين ، طيب الله ثراه ، وعلى يمينه اللورد ، وجاء ترتيب مقعدي على يمين المندوب السامي السابق ، الذي كان يهز مصر هزا في يوم من الأيام

وحضر دعوة العشاء سماحة مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني ، وراغب بك النشاشيبي ، وروحي بك عبد الهادي ، وأمين بك عبد الهادي ، ورؤساء بلديات حيفا ويافا ونابلس وغزة والرملة ، وجاء مع الملك مستشاره فؤاد باشا الخطيب ، كما حضرها شكري بك التاجي ويعقوب افندي فراج وإحسان هاشم ، أما الجانب البريطاني فمثله الأمير الاي جارفس حاكم سيناء ، وجلوب باشا ، والمندوب السامي في عمان كيرك برايد وعقيلته ، والمستر ريتشموند والمستر فيرنس مدير المطبوعات ثم المستر موري من كبار موظفي حكومة فلسطين وعقيلته

وكنت قد طافت أنحاء الدار برفقة المستر فيرنس ، أحادثه عن عوائد الأسكوتلنديين وطرائفهم وألوان القبائل ، وشعار البطون والأقسام ، لأني رأيت المندوب السامي حريصا على إظهار قوميته بشكل واضح ، ولا أخفي أنني أعجب بصراحة القوم واندفاعهم السريع نحو الغضب ونحو الرضا

ولما دخلنا حجرة الطعام وعرفت مجلسي مع اللورد ، لم أكن مرتاحا لتلك الجيرة ، فقد كنت أعرف كيف كان اللورد يتعالى على المصريين ، فما هو موقفه مع ممثل مصر ، والكل يعرف ما نحن فيه ؟ فلم أشأ أن أبدأ حديثا معه ، وإنما جعلت كلامي مع جاري الأيمن المستر ريتشموند مدير الآثار ، واستعنت ببعض معلوماتي الأولية في التاريخ لكي أجعل الحديث متواصلا وبلا انقطاع . وبعد دقائق تحرك اللورد المعظم فوجه إلى بعض الأسئلة: أين تعلمت الإنجليزية ؟ وهل أقمت بإنجلترة ؟ كم مدة لك بالقدس ؟ ولما علم أنني كنت قبل مجيئي إلى فلسطين بمفوضية مصر بأنقرة أخذ يسأل عن رجالها واحدا واحدا ، وعن نهضتها وسياستها الخارجية وعلاقاتها بالسوفييت وإيطاليا وفرنسا ، وعن جيشها واستعدادها وما تنوي عمله إذا ما هوجمت من قبل موسوليني . ولما كنت أجيب على أسئلته بطريقة منطقية وصريحة كما أعلمته من

(١) أي نحن أهل مصر

المبدإ أن ما أعرفه من الإنجليزية هو من صناعة مدارسنا المصرية وأنني لم أكن خريج أي معهد بريطاني ، اعتدل كثيراً في مناقشته وبدأ يرحب بالإجابة على أسئلتي التي وجهتها إليه عن حقيقة مهمته في الشرق ولماذا يترك واجباته السياسية وأعماله المالية ليقوم برحلته الطويلة : وكما كنت صريحاً معه ، كان هو من جانبه صريحاً معي.. ونعلم جميعاً ما تمخضت عنه رحلة اللورد من إنشاء المعاهد والمجالس البريطانية ، لزيادة الروابط الثقافية بين بلاده وبقية بلدان الشرق

لم يكن يدور بخلدي ساعتئذ أنني أستعد لأداء امتحان للترجمة بين الملك عبد الله بن الحسين واللورد لويد ، إذ بعد دقائق دار حديث سياسي بين الرجلين العظيمين عن شؤون الشرق والبلاد العربية ، وكان الملك يتتبع بنظراته كل كلمة أنطق بها وكان اللورد بما يعرفه من العربية يتتبع كل تعريب ونقل لآرائه

ولا أخفي على القارئ أنني خرجت من الحديث وأنا أؤمن بوطنية الملك عبد الله بن الحسين ، وعبقريته السياسية ووسائله في إقناع محدثه واجتذابه لصفه لقد وفق الملك الراحل بكلماته من أن يجعل اللورد الإنجليزي يعطف على قضية شرق الأردن ، ويثق في مقدرة الملك العربي ولباقته وإخلاصه لمبادئه

ولقد كان عبد الله بن الحسين مدافعاً عن حق العرب في فلسطين وشرق الأردن وفي سوريا ولبنان وفي العراق : كان يقول بأن الأمم العربية لها مطالب يجب على بريطانيا أن تجيبهم إليها إذ لهم حقوق ومواثيق ووعود ... وأنه يجب أن تضع بريطانيا نصب أن تستعد للحرب عسكرياً ، إجابة هذه المطالب في المقدمة ، وأن صداقة العرب في أي نزاع أثمن لها من صداقة الغير ، وأفيد لها عند الجد من تعبئة الجنود وزيادة القوة العسكرية في بلادهم

قال إن العرب بطبعهم لا يميلون لإيطاليا بعد الدور الذي لعبته في طرابلس ، وبعد أن سكتت جيوشها بالمجاهدين وبعمر المختار ، وأنهم يطمئنون إلى صداقة بريطانيا إذا أوفت بعهودها ومكنتهم من وحدتهم وحريتهم واستقلالهم

وكانت بريطانيا تخشى دعاية الطليان وآثارها ، فقال إن أخطاء بريطانيا هي التي ستمكن لهذه الدعاية أن تتغلغل في أفكار العرب وتسمم نفسية الشباب نحو بريطانيا ، وأن كل تردد أو موقف سلبي سيزيد هذه الدعاية ويقويها

ولما سأله عن شرق الأردن قال إنه يتمتع باستقرار لا يتمتع به غيره من البلاد.. وأشار إلى سوريا التي كانت تجتاحها الأزمات ويقوم فيها ممثلو فرنسا بالتجربة وراء الأخرى

وكان الملك يعلم بنية بريطانيا في زيادة قوات الطيران وفي زيادة قوة الحدود بشرق الأردن.. وهي القوة التي كانت تتحمل مصاريفها الحكومة البريطانية وحكومة فلسطين ، فقال بصراحة : إن الاعتماد على صداقة العرب أجدى من هذه الزيادة ؛ ولكن الحصول على ثقة العرب يتطلب في المقام الأول منح العدالة لهم في فلسطين وصد تيار الهجرة وإقناع سكان فلسطين بأن الانتداب ليس معناه خدمة الصهيونية فحسب ، بل الدفاع عن كيان العرب والمحافظة على حقوقهم وتأمين مستقبلهم ...

لقد دهشت من منطق عبد الله بن الحسين ، إذ ما كنت أتصور فيه تلك الجرأة في التعبير عن آرائه ، أما اللورد الذي كانت إرادته هي كل شيء في مصر ، وكانت عباراته قوية لدرجة أن وافقه اللورد عليها بل وأظهر عطفه على مطالب العرب وقال إن بلاده لم تسلم لفرنسا إلا باحتلال الساحل ، إن سوريا كان مفهوماً ومتفقاً عليه أن تكون مستقلة لا ولاية ولا مستعمرة تحتلها فرنسا وتفعل بها ما تشاء . وقال إن الانتداب يجب أن يتجه لحماية العرب من توغل اليهود في فلسطين ، وكان اللورد بادي الانفعال لا يقدر على إخفاء مشاعره نحو العرب مندفعاً مع الملك في حديثه حينما وجد على المائدة طبقاً من الزنجبيل المسكر فأخذ يقدم ما فيه للملك ولي ويتناول منه قطعة وراء قطعة حتى اكتشف في النهاية سؤالاً نقلنا من كل هذا -- إذ قال ما رأي الأمير في الملك عبد العزيز بن السعود ؟ فالتفت إلى الملك وقال أسأله ما رأيه هو فيه ؟ أريد أن أسمع حكمه أولاً . فتردد اللورد قليلاً ثم قال إنني أعرف الحجاز عاماً وأعرف قبائله ورجال البادية في ربوعه إذ عشت هناك طول مدة الحرب الماضية؟ وقد قرأت كثيراً عن الملك عبد العزيز بن السعود وقدرت مواهبه ولكن الصورة التي انطبعت في مخيلتي عن جلالته ، زالت حينما لقيته لأول مرة في الطائف وكان ذلك في سنة ١٩٢٥ »

كنت أنتظر من رجل البادية الذى أسس ملكه بسيفه ، واستنقذ الرياض وجمع حوله الإخوان وربط بين أجزاء الجزيرة فكون منها وحدة فى القرن العشرين ، رجلا آخر . ولعل رؤيتى له فى وقت كان يستعد فيه ويستجم بعد طول الجهاد والكفاح ، أظهرته لى على غير حقيقته

ولعلنا نحن معاشر الإنجليز نخطئ فى الحكم لأول وهلة، فنحن نراه رجلا للبادية لا يستوعب ضرورات المدنية الحديثة وينفر من كل جديد ، ولا نشك فى أن فتح الحجاز كان عبئا عليه، وإن هذه البلاد الفقيرة ستتحمل زيادة على فقرها استغلال السعوديين لمرافقها

وكان الملك ليقا فى إجابته إذ قال إنه متفق تماما على رأى اللورد فى أن أهل الحجاز ما انفكوا يشكون فى الإدارة السعودية وأنهم يأتون إلى عمان وينقلون أخبار الفاقة السائدة هناك

وقال اللورد: إن الذى يهمنا هو استتباب الأمن والنظام وإيجاد حكومات تشعر بأهمية ذلك.. وما دامت الحدود محفوظة ولا تقوم ثورات فى شمال الحجاز. وقد صفيت مشكلة الجوف نهائيا فلا أعتقد بوجود خطر فى هذه الناحية.. كما أن الحرب إذا قامت فى أى وقت فى أوروبا أو أفريقيا فأغلب الظن أن هذه الجزيرة العربية سوف لا تتأثر بقيام نزاع مسلح بين زعماء العرب

كانت حوادث الاعتداء على حدود الأردن الصحراوية لا تزال ماثلة، وكذلك حركة ابن رفادة فى شمال الحجاز؛ وما دار بين ابن السعود وفيصل الدويش ، ولكن أنظار اللورد كانت تحوم حول العراق وما قد تحدث فيه من الحوادث بعد وفاة فيصل الأول وتحت قيادة غازى الأول، وكانت عيناه تتجهان يمينا وشمالا حينما ذكر العلاقة بين الملك عبد العزيز وقبائل الدولة فى الشام

كل هذا لم يثن الملك عبدالله بن الحسين عن أن يذكر الحجاز، وأن الهاشميين أبناؤه وسدنته وأنه الأرض المقدسة التى يتجه لها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها : وأن توليه عرش الأردن لا يمنعه من تتبع أخبار الحجاز وآماله ومستقبله ، لأن لديه بشرق الأردن عددا من الحجازيين قد لجأوا إليه فهم يذكرونه عند كل لقاء بأن عليه أن يعمل شيئا لهم ، واختتم كلامه بأنه لا يقدر أن يرد واحدا منهم لو جاء إليه ، وأنه ليسعد أن يعطى كل ما يملك لهم وأن يقتسموا ملبسه وما كله معه

كان كلامه مؤثرا فى تلك اللحظة وكنت أجد متعة فى نقله والتعبير عن آرائه .. لقد خرج عبدالله بن الحسين عن الملك والإمارة وأصبح إنسانا يتحدث بعاطفته وقلبه وشعوره ، ولم يقف عند هذا الحد إلا بعد أن قام المندوب وشرب نخب ملك الإنجليز ، والأمير الأردنى واللورد بكوبة ماء احتراما للحاضرين ، ودخل أفراد من فرقة الفرب بكامل ملابسهم الحمراء يحيون الحاضرين بعزف بعض المقطوعات الاسكتلندية : وانصرفنا جميعا إلى الردهة الكبرى ... حيث يسودها ذلك الجو الصليبى الذى يشعرنى بأنى وسط غمرات الحروب الصليبية وجنود الأفرنج وأعلامهم ورنوكهم وأسلحتهم

أحمد رمزى

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز، وتحليل مفصل، واختيار موفق، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنتى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشا عدا أجرة البريد